مجلة علوم التربية

دورية مغربية فصلية متخصصة

ملف خاص
عن بيداغوجيا الإدماج

- الإصلاح التربوي وأوراش مدرسة المستقبل
- البرنامج الاستعجالي بعد سنة من التفعيل !!!
- مشكل العنف المدرسي في المغرب
- تنمية وتطوير مهارة القراءة وزيادة الاستيعاب
- المدرسة والتنشئة الاجتماعية
- العلاقات التربوية بين المعلم والمتعلم

العدد الخامس والأربعون -أكتوبر 2010

العلاقات التربوية بين المعلم والمتعلم عند الغزالي وابن خلدون

محاولة للتحيين

محمد بازي *

نحن أمام سؤال تربوي كبير: كيف يمكن أن نصنع اليوم مدرسا ناجحا، ومدرسة ناجحة، وتلميذا يرتقي أعلى درجات التفوق الدراسي ؟ وكيف نخلق علاقات تربوية مميزة في أوساطنا التربوية ؟ أسئلة من بين أخرى كثيرة تصب كلها في الجهود الساعية إلى إعادة الاعتبار للعلاقات التربوية داخل الفصل الدراسي، وداخل المؤسسة ككل، من أجل خلق الأجواء المثلى للتعليم والتعلم، واكتساب المعارف والخبرات والكفايات الضرورية لبناء إنسان هذا العصر، وإعداده للحياة العملية المتطورة بكل متطلباتها وإرغاماتها. وقد اخترت أن يكون إسهامي في هذا المحور اقتباس بعض الإشارات التربوية المشعة من تراثنا التربوي، علها تحدث التأثير الإيجابي في نفوس المهتمين بالتربية والتكوين،وتوجه الانتباه مرة أخرى إلى عمق التراث للنهل منه، وإغنائه بالمستجدات التربوية، ونظريات التعليم والتعلم الحديثة.

ما هي تصورات الغزالي وابن خلدون لصناعة التعليم ؟ وكيف رسما دور المدرس في تفاعله وعلاقاته، وتأثيره على محيطه؟ ما الأخلاقيات التي سيستفيدها المدرس اليوم مما قدمه السلف، و ما تقدمه الأدبيات التربوية الحديثة لهذا الفاعل المحوري الذي يثير اهتمام المجتمع والطلبة والمهتمين بقيمة وجودة عمله؟ ما هي أنماط الكفايات و الآداب التي يزوده بها التكوين للاضطلاع بهذه المهمة الصعبة؟

سنجعل من هذه الأسئلة أفقا معرفيا لتحليل بعض العلاقات التربوية داخل المدرسة

* المركز التربوي الجهوي -إنزكان

المغربية؛ وهي أسئلة ستظل مفتوحة دون شك على البحث والتقصي المستمرين، وعلى محكات التجربة الشخصية لكل ممارس، عبر توسيع النقاش في هذا الموضوع، من خلال استكشاف بعض الإشارات التراثية المشرقة وتناولها بالتحليل و الإغناء والتطعيم لإحيائها في واقعنا التربوي. هذه النزعة الإحيائية لا تتوقف عند هذا الحد، وإنما تدعو إلى استشراف رؤى الأدبيات التربوية الحديثة، لإعادة تشكيل الكفايات المعرفية والمنهجية والتربوية والتواصلية والتقنية والإستراتيجية، التي تتفاعل في شخصية المدرس الناجح، والتي يكون نتاجها التأثير الإيجابي الواضح على علاقاته بالمتعلمين، و على محيطه القريب والبعيد.

1 - وظائف وآداب المدرس عند الغزالي

1-1 - الإضاءة الأولى: في كمال أحوال الإضاءة والطيب

لم يكتف الغزالي بتحديد وظائف المتعلم ومهامه وواجباته وآدابه، لأن هذا شطر من عناصر صناعة التعليم، وإنما حدد بدقة وبطريقة واضحة وقوية آداب ووظائف المرشد المعلم ، وقد ظل في كل ذلك محكوما بمرجعية قوية، ومفاهيم محددة، ومقاصد عليا. إن مسؤولية العالم، والمدرس، والمربي من أصعب المسؤوليات، لأنه تقلد أمرا عظيما وخطرا جسيما. قال مبينا هذا الأمر:

"اعلم أن للإنسان في علمه أربعة أحوال كحاله في اقتناء الأموال: إذ لصاحب المال حال استفادة فيكون مكتسبا، وحال ادخار لما اكتسبه فيكون به غنيا عن السؤال، وحال إنفاق على نفسه فيكون به منتفعا، وحال بذل لغيره فيكون به سخيا متفضلا وهو أشرف أحواله. فكذلك العلم يُقتنى كما يُقتنى المال فله حال طلب واكتساب،وحال تحصيل يغني عن السؤال، وحال استبصار وهو التفكر في المحصل والتمتع به، وحال تبصير وهو أشرف الأحوال: فمن علم وعمل وعَلَّم فهو الذي يدعى عظيما في ملكوت السموات فإنه كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة في نفسها، وكالمسك الذي يطيب غيره وهو طيب. والذي يعلم ولا يعمل به كالدفتر الذي يفيد غيره وهو خال عن العلم، وكالمِسَن الذي يشحذ غيره ولا يقطع، والإبرة التي تكسو غيرها وهي عارية، و ذبالة المصباح تضيء لغيرها وهي تحترق كما قيل:

ما هو إلا ذبالة وُقدت تضيء للناس وهي تحترق"

لو توقفنا قليلا عند هذا النص وقفة استمتاع بجمالية القول وصناعة البيان، فإن مستوى الجودة البلاغية والحجاجية الذي سار عليه الغزالي في عرضه لتصوراته وآرائه يبدو ملفتا للانتباه؛ فالبناء النصي يرتكز على الأبعاد التقابلية التماثلية، إذ يبرز كل مسألة من

خلال الاعتماد على مقابل مماثل مما يظهرها جلية. وليس المقام هنا مقام تحليل بلاغي، وإنما استوقفنا هذا المقطع البديع في بنائه، حيث قابل بين أحوال الناس مع المال وأحوالهم مع العلم:المكتسِب للمال مستفيد(مقابل) العلم يُقتنى ويُطلب.المدَّخِر للمال مستغني عن السؤال(مقابل) العلم يحصل فيغني صاحبه عن السؤال.المنفق للمال منتفع به(مقابل) الاستبصار بالعلم تمتع به.بذل المال سخاءٌ وتفضلٌ وشرف مقام (مقابل) تبصير الناس بالعلم أشرف الأحوال.

هذا هو المستوى الأول من تفهيم درجات المتعلم للعلم في مقابل درجات تحصيل الناس للمال؛ والقصد من الإتيان بالمثال التفهيم والتقريب والتوضيح كما هو جلي.فمحصِّل العلم درجات وأحوال، وقد قدمها الغزالي في كلام بليغ موجز ومختصر اعتمادا على تشبيهات قريبة من الفهم، لا غموض فيها:فالعالم الذي يعمل بعلمه ويعلمه للناس كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة في نفسها، وكالمسك الذي يطيب غيره وهو طيب . وأما العالم الذي لا يعمل بعلمه فهو كالدفتر يحمل العلم لغيره وهو عار عنه، وكالمِسَن يشحذ غيره وهو لا يقطع، والإبرة التي تكسو غيرها وهي عارية، وذبالة المصباح تضيء لغيرها ومصيرها الاحتراق. ومحصل هذه المعاني المتقابلة عبر تشبيهات دقيقة تبيان أكمل حالات المتعلم للعلم، وهو العمل به، وتعليمه للمتعلمين للعمل به كذلك،للوصول إلى كمال أحوال الإضاءة والطيب، أي التطيُّب والتَّطييب، والاستبصار والتبصير، والاستضاءة والإضاءة.

بعد هذه المقدمة البليغة يحدد الغزالي وظائف معلم العلم وآدابه، ونحن بحاجة للاستفادة منها في تكوين المدرسين والمدرسات، لما فيها من عمق وتصور تربوي ناضج، يستند إلى امتلاك المرجعية المنسجمة مع أهدافها وغاياتها.

1-2 - الإضاءة الثانية: في الشفقة على المتعلمين وتوجيهم

وتتحقق عبر إنزال المتعلمين منزلة الأولاد والشفقة عليهم، عبر تبصيرهم بما لا يبصرهم به الآباء؛ فإذا كان الآباء سبب الحياة الفانية فإن المعلم سبب الحياة الباقية، وهو تصور ينسجم مع التصور المركزي في كتاب الإحياء:الدنيا مزرعة الآخرة. ولذلك يرى أن التعليم الذي قصده الدنيا فحسب هلاك وإهلاك، لما يصاحبه من تباغض وتحاسد، أما التعليم الذي قصده الدنيا والآخرة فهو باب التوادد والتَّحاب والرقي بلا شك.

من وظائف المعلم،كذلك، إسداء النصح للمتعلمين، وهي وظيفة توجيهية لها أهمية قصوى في المسار التعليمي للطالب، ويتمثل النصح في عدم منحه رتبة قبل استحقاقها. يرتبط

هذا في أدبياتنا التربوية اليوم بالتقويم ودقته وموضوعيته، وما في ذلك من مسؤولية جسيمة على عاتق المدرسين والإدارة، فكثيرا ما يرقى بعض المتعلمين إلى رتب ليسوا أهلا لها لدوافع وأسباب مختلفة، يضيق المجال عن التفصيل فيها. بل تعمد الجهات الوصية أحيانا إلى الدفع بالمتعلمين إلى مستوى لم ينالوه استحقاقا، وإنما لملء الأقسام، وضمانا لسير عادي موهوم للدراسة وللخريطة المدرسية .

كما أن من وظائف المعلم تحديد مجالات اشتغال المتعلمين، من حيث تبصيرهم بأوليات العلم وضرورة التدرج فيها تباعا، ووفق مراقٍ: الجليات أوّلا إلى حين استكمالها، ثم الخفيات والعلوم الدقيقة ثانيا، وهي مهمة توجيهية شاقة فيها حرص كبير على المتعلمين وعلى مسارات تعلماتهم.

1-3 - الإضاءة الثالثة: في عدم تجريح المتعلمين

من الآداب العملية التي يشير إليها الغزالي في صناعة التعليم، والتي ترفع مقام معلم العلم الزجر عن الأخلاقيات السيئة في صفوف المتعلمين عن طريق التلميح لا التصريح، «لأن التصريح يهتك حجاب الهيئة، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف، ويهيج الحرص على الإصرار» . وما أحوج المدرسين اليوم - مبتدئين وممارسين قدامى- إلى هذه المنهجية الرقيقة في التعليم، و التي هي سر من أسرار ارتفاع مقاماتهم، وبلوغ درجات الاحترام والتقدير لدى المتعلمين، لأن التصريح والمباشرة والفضح أمام الأقران يسيء إلى قيمة المدرس، بل يكون ذلك سببا في تهييج التلميذ الموبَّخ، فيُعِد نفسه للانتقام لما لحقه من أذى جسدي أو معنوي، وإن كان يستحق العقاب.

كما أن في التعريض والتلميح استمالة للعقول الذكية لاكتشاف معانيه ومغازيه، فيحصل المراد دون أن يلحق الأذى أيًّا من المتعلمين. ولعمري إن هذا الأسلوب، لو نهجه المدرسون واعتنوا به وأسسوا له بلاغاته لكفاهم، ولكان ما ينالونه من المكانة أضعاف ما ينالونه من موضوعات العلم، لأن المتعلم يعجب بشخصية معلمه ورِفقه ورحمته به أكثر مما يعجب بموضوعات التعلم، وهذا أمر عشناه، وجَرَّبناه، وسمعنا عنه في مساراتنا التعلمية والتعليمية والتكوينية، و ما فتئنا نسمع عنه باستمرار.

1-4 - الإضاءة الرابعة: في تساند العلوم

من آداب المدرسين أن لا يقبحوا للمتعلمين ما يدرسونه في اختصاصات أخرى، وقد كان بعض المعلمين قديما يقبحون علوما لا يدرسونها، فمعلم اللغة يقبح الفقه،ومعلم الفقه يقبح الحديث والتفسير، ومعلم الكلام ينفر من الفقه، وغير ذلك. قال:» فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغي أن تجتنب، بل المتكفل بعلم ينبغي أن يوسع على المتعلم طريق التعلم في غيره» . إن ما يجعل المدرس في زماننا هذا موضع احترام، من طرف زملائه، وطلبته، أن لا يُظهر أن تخصصه أحسن التخصصات، أو أن ما يُدَرِّسُه غيره لا جدوى من ورائه. بل أصبح مطلوبا اليوم كما تفعل بعض المدارس الغربية الحديثة تخصيص محور سنوي للبحث والدراسة، تشترك كل التخصصات والفروع المعرفية في تناوله، وتحليل جوانبه تبعا للتخصص، إذ ليس في مكنة مدرس اللغة العربية إفادة المتعلم في غير جوانب تخصصه في موضوعة الماء مثلا، لكن مدرس العلوم الطبيعية بإمكانه فتح أبواب معرفية دقيقة بحكم الاختصاص. ومدرس الإسلاميات يتناول مع تلاميذه الموضوع ذاته من زوايا أخرى ويدفعهم للبحث فيها. و مدرس المعلوميات يبين لهم طرائق البحث عن المواد المرتبطة بالموضوع في الشبكة المعلومية مثلا، وطرائق عرض المحتويات، والتنسيق بين المكونات والمستويات. ومدرس الاجتماعيات يسهم في الموضوع برصد بعض الجوانب الاجتماعية للتعامل مع الظاهرة المدروسة... وهكذا يدرك المدرسون والمتعلمون ما بين التخصصات والعلوم من بوابات للعبور، وإمكانيات لخلق التفاعلات الممكنة بينها؛ ومن ثمة أضحى لزاما على المدرسين التفكير في وسائل جديدة لفتح مداخل بين المعارف والتخصصات فهي تتعاون وتتساند فيما بينها لتحقيق التعلمات.

من شأن هذا النمط من التناول أن يشجع على التنسيق بين المواد بشكل أفضل، وأن تتغير طريقة المقررات الجاهزة التي تلقى على التلاميذ، فلا يتكلفون مشقة البحث والتنقيب، وإنما يستهلكون ويملئون الدفاتر، لأن طاقاتهم في البحث والاستكشاف معطلة لجمود المقررات، وصرامة البرنامج الزمني.

وتبعا لذلك يمكن أن تحدد المدارس والثانويات مجموعة محاور سنوية من بين الظواهر العلمية والإنسانية المقررة لتنجز فيها بحوثا مشتركة، فتعمل فرق البحث المكونة من تلاميذ كل قسم على تقديم إجابات عنها، وخلاصات تركيبية حولها. وهو ما يعني ضرورة تجاوز هذا الشتات المعرفي، وهذه الأرخبيلات التعلمية المتناثرة التي لا رابط بينها.

آن للمدرسين إذًا أن يتفهموا ضرورة خلق جسور بين التخصصات والمعارف، وتحويل المقرر المفروض إلى مقرر اختياري، تحدد فيه كل ثانوية، أو مدرسة محورا، أو مجموعة

من المحاور تُتناول بالمعالجة والتحليل، وتُتخذ فيها إجراءات تقويمية محددة، ذات مقاصد وغايات وأدوات داعمة، وغير ذلك من الوسائل، وهو ما يسمح بالابتكار والإبداع، والخروج من أسر التكرارية والاجترار والتقليد.

1-5 - الإضاءة الخامسة: في التدرج بالمتعلمين

من واجبات المعلم التدرج في الرقي بالمتعلم من درجة إلى أخرى، ومن رتبة إلى رتبة، ومن مستوى إلى مستوى أعلى منه، حسب طاقة المتعلم على الاستيعاب، واكتساب المعارف والمهارات. قال النبي صلى الله عليه وسلم: « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونُكلِّمهم على قدر عقولهم». وإذا كانت درجات المتلقين للمعارف متباينة المستويات والمدارك فإن من واجبات المدرس مراعاة ذلك، وأن لا يلقي لهم المعارف دفعة واحدة، بل يراعي في ذلك مستوياتهم وذكاءاتهم وقدراتهم، وأن ينهج سبيل المعاودة والتبسيط مع المتعثرين حتى يلحقهم بالمتقدمين، و يسد الشقة مابين المتفوقين ومن هم دونهم.

وقد عرفنا من المدرسين في التعليم الثانوي من يملأ - عن قصد- درسه بالاصطلاحات والمفاهيم، ويدخل في تعقيدات شتى ليُظهر قوة شكيمته، وتمكنه من أدوات التدريس. وهو نوع قوة لا يلائم مجال التعليم، ولا يفيد المتعلمين، وإنما يفتنهم ويحيرهم. ولذلك فمن أبرز لوازم المدرس أن يكون مدركا ملما بالمستويات القبلية للتلاميذ، ولا بأس أن يحْضُر نماذج من دروس المستويات التي قبل المستوى الذي يُدَرِّسه ليربط اللاحق بالسابق، ويعرف على أية قواعد معرفية يبني ويؤسس لمعرفة جديدة. وإلى ذلك أشار الغزالي بقوله : «كلِّ لكل عبد بمعيار عقله، وزِن له بميزان فهمه حتى تَسْلَم منه وينتفعَ بك، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار».

إن مراعاة أحوال المتعلمين ومستوياتهم من أخص الواجبات والوظائف التي يجب أن ينتبه إليها المدرسون، وأن لا يحصل لهم ضيق صدر من ذلك، لأن التفاوت طبيعي بين عناصر المجموعة الواحدة، بل يصبر على المتعلمين، ويقصد الأدنى بالإفادة والتعليم لينال نصيبه من التعلم، أما المتفوقون فإنهم يستفيدون لسرعة استيعابهم وفهمهم، ثم يرسخ ما يقصد به غيرهم من التعليم، فيحفظونه، ويوسعون معارفهم، بل يدركون دقائق أخرى فاتتهم.

1-6 - الإضاءة السادسة: في مراعاة الفروق بين المتعلمين

لقد أولت الأدبيات التربوية القديمة عناية بالغة بالمتعلم المتأخر أو القاصر، وبينت أن المتعلمين مراتب ودرجات. ولذلك ألح الغزالي على أن المعلم يجب أن لا يلقي للمتعلمين إلا

الجلي والواضح، لأن الغامض والصعب والدقيق يفتر عزيمتهم، ويسبب لهم النفور و الكلال، ثم الانصراف عن العلم.كما أن من شأن الذي يغوص مع العوام في الأمور الدقيقة المشتبهة أن يفسد عليهم صناعاتهم التي بها قِوام الخلق ودوام عيش الخواص، بل ينشغل معلم العلم بتعليم العوام العبادات والأمانة في الصناعات.

وبالإجمال فإن معرفة الأوضاع الاعتبارية للمتلقين للعلم، ومخاطبتهم على قدر عقولهم ومداركهم، تمكن من تحقيق الغايات القصوى من التعليم، وترفع من قدر المدرس وتقربه من قلوب المتعلمين؛ بل إن مراعاته لمراتبهم وأحوالهم ومستوياتهم المعرفية ييسر عمله التعليمي ويبلغه مقاصده بأيسر جهد وأقل وقت.

1-7 - الإضاءة السابعة: متى استوى الظل والعود أعوج؟

من الآداب والوظائف التي حرصت عليها الأدبيات العربية القديمة في التربية، ضرورة اقتران علم المدرس بالعمل، فلا يناقض عمله ما يُعَلمه للآخرين. قال الغزالي: «فإذا خالف العمل العلم مُنع الرشد، وكل من تناول شيئا وقال للناس لا تتناولوه فإنه سم سخروا به، واتهموه، وزاد حرصهم على ما نُهوا عنه، فيقولون لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به» .

من جملة الوظائف المنوطة بالمدرس التقيد بالعمل، والتمسك عمليا بما يرشد إليه الآخرين، لأنه يمثل القدوة والنموذج، فإذا رأوا منه ما يناقض أقواله استهانوا بعلمه، وتركوه وراء ظهورهم، لغياب القدوة والمثال الذي يجب أن يحتذى، ولذلك فمثل المدرس المرشد من المتعلمين «مثل النقش من الطين،والظل من العود.فكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه، ومتى استوى الظل والعود أعوج؟» .

2 - وظائف وآداب المدرس عند ابن خلدون

تدخل تصورات ابن خلدون حول قضايا التعليم ضمن نسق معرفي شامل يضمه كتاب «المقدمة» حول الحضارة والعمران، معتبرا التربية والتعليم قاعدة البناء العمراني والحضاري العام، مقدما بذلك رؤية فكرية متراصة متفاعلة العناصر والمستويات؛ فالبناء العمراني تسهم فيه مجموعة من الصناعات، منها الفلاحة، والبناء، والحياكة، والكتابة، والوِراقة، والطب والعلم والتعلم وغيرها. وهو يقدم مجموعة من التصورات والآراء الجديرة بالاهتمام في منظومتنا التربوية الحديثة، نلخصها في مجموعة من الدعامات، و نسندها بعد ذلك بمجموعة من التصورات حول الواقع التعليمي الراهن، من خلال احتكاكنا اليومي به.

2-1 - الدعامة الأولى: العلوم المقاصد والعلوم الآلات

مما يعوق التحصيل والتعلم كثرة التأليف في علم من العلوم، وتداخل الاصطلاحات، وخاصة إذا طولِب بها المتعلم كلها في زمن وجيز، أو تعلق الأمر بالعلوم التي هي آلات لغيرها مثل علم النحو، وما فيه من تفاصيل وتفريعات .قال: «فالظاهر أن المتعلم ولو قطع عمره في هذا كله، فلا يفي له بتحصيل علم العربية مثلا الذي هو آلة من الآلات ووسيلة، فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة؟».

يوجه ابن خلدون المعلمين والمتعلمين على السواء إلى عدم التبحر في العلوم الآلية التي هي باب ومدخل لغيرها من العلوم، والاكتفاء في ذلك بما هو ضروري.فأما العلوم التي هي مقاصد فلا حرج في توسعة التعليم فيها. يدرك ابن خلدون أن العلوم متساندة ومتعاونة، وبعضها آلة الآخر؛ ثم إن التوسع يجب أن يكون في العلوم المقاصد دون العلوم الآلات، ولذلك يلح على ضرورة التمييز بين الصنفين حتى لا تضيع المقاصد على حساب الوسائل.قال: «فلا يوسع فيها الكلام، ولا تفرع المسائل، لأن ذلك يُخرج عن المقصود، إذ المقصود منها ما هي آلة له لا غير. فكلما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود وصار الاشتغال بها لغوا، مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها...والعمر يقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصورة، فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآلية تضييعا للعمر وشغلا بما لا يغني».

2-2 - الدعامة الثانية: في توجيه المتعلمين واختيار الجسور الموصلة

وقد عانينا طويلا من هذه الآفة عندما كنا تلاميذ، ولازال تعليمنا يعانيها إلى يومنا هذا؛ حيث كانت مقررات الطالب الأدبي-مثلا- مشحونة بالرياضيات والعلوم الطبيعية والنحو والصرف والاشتقاق، والدراسات الجغرافية والتاريخية، التي لو تفقدنا منها اليوم شيئا لما وجدناه،وما ذلك إلا لغياب تصور وظيفي للعلوم المدَرَّسة في كثير من المسارات التعليمية؛ وهي للأسف أخطاء توجيهية فادحة فيها تضييع للوقت والجهد والموارد البشرية والمال، وخاصة في المستويات الإعدادية،حيث يتلقى التلميذ مرغما علوما شتى بعيدة عن ميولاته واهتماماته. ولذلك لا بد من البحث عن آليات حقيقية لتوجيه المتعلم مبكرا، وتخصيصه في المجال الذي لوحظ فيه تفوقه، وظهرت فيه ميولاته، وإراحته مما سوى ذلك، إذ بعد أمد بعيد يظهر أن سوء التوجيه أو غيابه ضياع حقيقي .قال ابن خلدون: « لأن المتعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بهذه الآلات والوسائل، فإذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل فمتى يظفرون بالمقاصد؟ ولهذا فعلى المعلمين لهذه العلوم الآلية أن لا يستبحروا في شأنها، ولا

يستكثروا من مسائلها، وينبهوا المتعلم على الغرض منها ويقفوا به عنده، فمن نزعت به همته بعد ذلك إلى شيء من التوغل؛ ورأى في نفسه قياما بذلك وكفاية به فليختر لنفسه ما شاء من المراقي صعبا أو سهلا .وكل ميسر لما خُلق له».

وهكذا نلاحظ أن من آداب ووظائف المعلم تنبيه المتعلم إلى أن المقصود بهذا العلم أو ذاك كونه وسيلة لغيره فحسب، وأن يقوم على تطبيق ذلك خير قيام . وقد وجدنا صعوبات جمة في دروس النحو والإعراب والصرف، عندما كنا تلاميذ، لكثرة فروعها، ووقوف المدرسين عند التفاصيل الدقيقة، فكانت النتيجة أن نسينا كل ذلك، ولا أحد منا اليوم يذكر كل دقائق مسائل النحو وفروعه مثلا؛ كما وجدنا الصعوبات عينها ونحن نُدَرِّس قواعد اللغة العربية، تعوزنا في ذلك قلة الخبرة، وما يفرضه المؤطرون من ضرورة الالتزام بالمقررات، والإسراع بإنهائها. ومرد ذلك غياب رؤية واضحة عند واضعي البرامج لدور قواعد النحو، وكيفيات ضبطها، وأفضل السبل لاكتسابها، وتدريسها. ولا تزال هذه الصعوبات- تعليما وتعلما - قائمة إلى الآن.

2-3 - الدعامة الثالثة:التدرج في التدريس

من وجوه صواب عمل المدرس الناجح في تصور ابن خلدون أن ينهج طريقة تدريجية، ينطلق فيها من التعريف بأصول موضوع التعليم على سبيل الإجمال، وهو ما يحصِّل لدى المتعلم ملكات جزئية، الغاية منها تحصيل ملكات ذلك العلم، و يعود إليها مرتفعا درجة أخرى، وموسِّعا في التفاصيل، ثم يعود للموضوع مرة أخرى موضحا وشارحا ومزيلا المبهمات والعقبات. وهو مسار تعليمي تعلمي قائم على التكرار والإعادة، يراعي قدرات المتعلمين وحدود استعداداتهم لتقلي موضوع التعلم.قال:» فإن قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجيا، ويكون المتعلم أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة، إلا في الأقل و على سبيل التقريب والإجمال وبالأمثال الحسية، ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا بمخالطة مسائل ذلك الفن وتكرارها، والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه حتى تتم الملكة في الاستعداد؛ ثم في التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن. وإذا ألقيت عليه الغايات في البدايات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعي، وبعيد عن الاستعداد له كلَّ ذهنه عنها، وحَسِبَ ذلك من صعوبة العلم في نفسه، فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى في هجرانه. وإنما أتى ذلك من سوء التعليم».

من أهم أسباب نجاح المدرس فهمه لحاجيات تلامذته، وإدراكه لحدود استعداداتهم، ثم

التعامل مع المادة موضوع التعليم وفق مسار متدرج يتبع الخطوات التالية:

أ- عدم تناول موضوع تعلم جديد إلا بعد التأكد من تحصيل الذي قبله، لأن المعارف مترابطة، وبعضها أسٌّ بعض وقاعدته. ومن التدريس المفيد مراعاة حدود تمكن المتعلم مما سبق، للبناء عليه وتطعيمه، أما البناء على الفراغ فهو ضياع و تضييع.

ب- التقريب: تقريب موضوع التعلم إلى أذهان المتعلمين.

ج- التمثيل: إذ بالمثال تُدرك النظريات، وأوائل العلم.

د- التدريج: الارتقاء بالمتعلم في موضوع التعليم درجة درجة، ورتبة رتبة.

ه- تبيُّن حدود استعدادات المتعلمين بالانتباه إلى مستوياتهم الإدراكية، وحدود تفاعلهم، وما يشوقهم ويثير اهتمامهم.

و- التكرير: الإعادة والتكرير مُخُّ العملية التعليمية، وهو أُسُّها ولُبُّها، لأن التكرار ترسيخ وتثبيت، ومراجعة وتحفيظ وتدارك.

ز-عدم خلط مسائل موضوع التعلم بغيرها: ضرورة استقلال موضوع التعليم، وتجنب الاستطرادات، وفتح البوابات على مناح علمية أخرى، يحصل معه التشتت الذهني.

ح-حصول الاستيعاب والتحصيل .

ط-حصول الملكات والاستيلاء على غايات العلم.

ي- تجنب أسباب النسيان بتفريق حصص التعلم في الموضوع الواحد، لأن ذلك يفتح باب النسيان، وانمحاء المحصل من العلم، وآفة العلم الحقيقية هي النسيان: « لأن الملكات تحصل بتتابع الفعل وتكراره، وإذا تُنوسِي الفعل تُنوسيت الملكة الناشئة عنه». قال الغزالي: «ما فنيت العلوم وإنما نُسيت، وفرق بين المحو والنسيان، فإن المحو إزالة النقوش والرسوم، والنسيان التباس النقوش، فيكون كالغمام أو السحاب الساتر لنور الشمس عن أبصار الناظرين، لا كالغروب الذي هو انتقال الشمس من فوق الأرض إلى الأسفل».

2-4 - الدعامة الرابعة: السماح بالجدل والحوار

يعتبر ابن خلدون تعليم العلم من جملة الصنائع، وأن الحذق في العلم يتم بحصول ملكات الإحاطة بمبادئه وقواعده، وتحصيل هذه الملكات من مشاهير المعلمين. ولا بد لاكتساب ملكات

قوة اللسان من المحاورة والمناظرة في المسائل العلمية، لأن من كانت عنايته بالحفظ، ولاذ بالصمت طيلة مراحل تعلمه، فإنه لا يتمكن من ملكات التصرف في العلم والتعليم. إن «حسن الملكات في التعليم والصنائع، وسائر الأحوال العادية تزيد الإنسان ذكاء في عقله، وإضاءة في فكره بكثرة الملكات الحاصلة للنفس».

2-5 -الدعامة الثالثة: الشدة على المتعلمين إضرار بهم

من سوء الملكات التدريسية التشديد على المتعلمين، والإضرار بهم تعنيفا وضربا وشتما، لأن ذلك يولد عادات سيئة لديهم كالمكر والتخابث والكذب، ويدفعهم كل ذلك إلى كراهية المعلم وتعليمه وموضوعات التعلم، شأنه في ذلك شأن كل نظام قائم على القهر والعنف، فإن إذلال النفس يعوقها عن اكتساب الفضائل، فلذلك لا ينبغي الاستبداد في التعليم والتربية لصون النفوس عن مذلة التأديب. فإذا جانَب المعلم هذه المسارات ساء تعليمه، وجر على المتعلمين نتائج سيئة في قابلياتهم للتعلم، فتتعب أذهانهم، ويتكاسلون، ثم يكرهون موضوع التعلم لسوء التدريس لا غير. قال النبي صلى الله عليه وسلم:» أشرار أمتي معلمو صبيانهم أقلهم رحمة بهم وأغلظهم عليهم». وقال:»إن الله يحب الرفق في الأمر كله، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء».

3 - نموذج من التراث التربوي : مِشْكاة أبي حنيفة

لقد ترك لنا تاريخ مجالس العلم والتعلم ذخيرة تربوية هائلة، تبين حجم الوقار والهيبة التي كانت للعلماء والمعلمين، الذين أخذوا حظا وافرا من آداب صناعة المعلم، فهذا أبو حنيفة كان لا يمزح ولا يلهو، وكان يسود مجلسه الوقار والهيبة والسكينة، وكان لا يلقي درسه إلقاء ولكنه يعرض المسألة، ويبين أسس أحكامها، فيفتح لتلاميذه باب الحوار والنقاش. وبعد أن يقلبوا النظر في كل جوانبه يدلي بدلوه،ويكون ما انتهى إليه الحوار هو القول الفصل.قال أحد معاصريه:» إن رجلا يسكن الله به كل هذه الأصوات لعظيم الشأن في الإسلام».

وفي هذا الأسلوب ما يدل على قوة شخصية المعلم العالم. وبإمكاننا الوقوف عند جوانب من تكوين شخصية المدرس، وما يرتبط بذلك من علاقات تربوية، من خلال ما نصح به أبو حنيفة تلميذه يوسف بن خالد السمتي وهو ذاهب إلى البصرة للتعليم:»إذا دخلتَ البصرة استقبلك الناس وزاروك، وعرفوك حقك، فأنْزِلْ كل رجل منزلته، وأكرم أهل الشرف، وعظِّم أهل العلم، ووقِّر الشيوخ، ولاطِف الأحداث، وتقرب من العامة، ودارِ الفُجَّار، واصحب الأخيار،

ولا تتهاون بسلطان، ولا تحقِرنَّ أحدا، ولا تُقَصِّرنَّ في مروءتك، ولا تُخرجنَّ سرك إلى أحد، ولا تثق بصحبة أحد حتى تمتحنه، ولا تُخادن خسيسا ولا وضيعا، ولا تألفنَّ ما يُنكر عليك في ظاهره...

ومتى جمع بينك وبين غيرك مجلس، أو ضمك وإياهم مسجد، وجرت المسائل أو خاضوا فيها بخلاف ما عندك، فلا تبد لهم خلافا، إن سُئلت عنها أخبرت بما يعرفه القوم، ثم تقول: فيها قول آخر، وهو كذا، والحجة له كذا.فإن سمعوه منك عرفوا مقدار ذلك ومقدارك، وعظموا محلك. وأعط كل من يختلفون إليك فرعا من العلم ينظرون فيه، ويأخذ كل واحد منهم بحفظ شيء منه. وخذهم بجلي العلم دون دقيقه، وآمنهم ومازحهم أحيانا، وحادثهم فإن المودة تستديم مواظبة العلم، وأطعمهم أحيانا،واقض حوائجهم، واعرف مقدارهم، وتغافل عن زلاتهم وسامحهم، ولا تُبد لأحد منهم ضيق صدر أو ضجرا، وكن كواحد منهم».

إذا تتبعنا هذه الوصايا بالتحليل سنجد أنها من أهم عناصر صناعة المدرس، ففيها من السمات والخصائص ما يجعل المدرس محبوبا عند تلامذته، و داخل وسط تأثيره.وهي كالتالي:إنزال المتعلمين والناس منازلهم على مستوى الاحترام والتخاطب،والتعامل مع كل صنف من الناس بحسب مكانته وطبعه وأخلاقه، وعدم استحقار أي من الخلق، وإعطاء الذات ما يكفي من الوقار والهيبة، ثم التخلق بالأخلاق العالية واجتناب أهل السوء والخبث.

كل هذه الجوانب تقدم زادا تكوينيا وتربويا لمعلم يراه أبو حنيفة مؤهلا لمنصب علمي وتعليمي، فينصحه بما يجعله يحظى بمكانة في نفوس الناس، وبما يضمن سلامته وكرامته داخل المجتمع، ولعمري إن المدارس التكوينية اليوم، رغم ما يقال عن حداثتها وجِدة ما يدرس فيه من النظريات التربوية محتاجة إلى مثل هذا الزاد الأخلاقي والتوجيهي الرفيع القيمة، وهو يشكل لب سياسة المعلم داخل الوسط الاجتماعي والثقافي الذي يعمل فيه. وفيها من الحرص الأبوي على المدرس المتدرب ما يكفي لأن يزرع فيه حب أستاذه وتلاميذه على السواء، ويضمن له استقرارا نفسيا واجتماعيا كريما.

و يمكن أن نستخلص من توجيهات أبي حنيفة ما يلي:

أ- النصح باعتماد إستراتيجية إشغال المتعلم بفرع معرفي، لأن المتعلم إذا لم تشغله شغلك.

ب- التوجيه إلى إستراتيجية فتح الحوار، وطرح مسائل التعلم على المتعلمين، وهو من التقنيات التعليمية الناجحة جدا، لأن التعليم إذا لم يبدأ من المتعلم وينتهي به فهو فاشل،

فالمتعلم هو الذي يتحاور ويناقش، يجتهد ويبني، يعارض ويستخلص؛ وذلك هو المسار الحقيقي لتمثل المعارف، واتخاذ المواقف.

ج-تقديم المعارف الكلية بإجمال والتوسع في الدقائق، وفيه إفادة للمتعلم، كما يُظهر تمكن المعلم من معارفه وعلومه، وهو ما يبث الثقة في نفوس المتعلمين، ويعلي مركزه عندهم.

د-الاكتفاء بالبسائط والواضحات من العلم، وعدم الخوض في المبهمات والمستغلقات. وقد رأينا مثل هذه الإرشادات عند الغزالي وابن خلدون.

هـ-الأخذ بحظ قليل من الترفيه لأن فيه فسحة للنفس، وإنعاشا لقلوب المتعلمين .

و-محادثة المتعلمين وملاطفتهم، لأن التقرب إليهم مفيد جدا في تعلماتهم وارتياحهم وأمنهم النفسي واستقرارهم فالمودة تستديم مواظبة العلم.

ز-قضاء حاجاتهم المادية على قدر الإمكان، وتقديم العون لهم؛ وهو بعد اجتماعي تلح عليه الأدبيات التربوية الحديثة، وقد ألمحنا إليه.

ح-التغافل عن الهفوات والزلات وعدم المحاسبة في كل الأمور، وتوسيع الصدر، وعدم إبداء التضجر منهم والاندماج الكلي في الجماعة:» كن كواحد منهم».

إن هذا النص – المشكاة يشكل لوحده قاعدة تكوينية لصناعة المدرسين، قديما وحديثا، و لا يزال هذا النص «التكويني» حيا، ويمكنه أن يفيد المتخرجين الجدد والممارسين على السواء،خاصة إذا أضيفت إليه بعض الكفايات المستحدثة في أيامنا هذه مثل الكفاية المعلوماتية، وكفاية بناء المشاريع وغيرها،ويظل نصا مرجعيا في تكوين المدرسين، لكن اللهاث المستمر وراء النظريات الغربية أفقدنا كثيرا من الهيبة إزاء تراثنا الزاخر بالأدبيات التربوية الحقيقية.

إن المدرس عليه» أن يتصف بأفضل ما في المجتمع على المستويات المعرفية، والوجدانية، والأخلاقية لأنه القدوة لأجيال الغد».ولا يتحقق هذا إلا عبر تكوين المدرسين ، و تجنب التعيينات المباشرة لأن مجالا معقدا مثل التعليم يحتاج إلى مدرسين تلقوا مبادئ المهنة، وتدربوا عليها بشكل دقيق.

4 - خاتمة في أهمية التكوين:

لتحقيق التفاعل المطلوب والحقيقي داخل المدرسة المغربية، والرقي بالعلاقات التربوية داخلها، والرفع من المردودية والجودة وجَبَ التشديد في صناعة المدرسين، وإعطاء التكوين

حقه. ومن العبث ما نلاحظه في أيامنا هذه من تعيين المدرسين في أقسامهم تعيينا مباشرا، دون الخضوع للتكوين الذي تتكفل به المدارس العليا للأساتذة ومراكز التكوين. فماذا سيقدم للتربية والتعليم «مدرس» لا نعرف شيئا عن إمكانياته المعرفية أو مقوماته الأخلاقية، ولم يخضع لأي نوع من التكوين؟ لذلك حصل الضياع وهُدرت الإمكانيات، وضعفت النتائج. إن تكوين المدرسين وصناعة ملكاتهم وتمرينهم على القيادة ومعرفة صعوبات المهنة أمر حتمي، ولا خلاف في هذا بين الممارسين، و إن اقتحام هذه الصناعة دون تكوين حقيقي أمر مخالف للعوائد، و مجانب للصواب، في حين أن مراكز التكوين شبه فارغة من الطلبة، وتدخلها كل سنة أعداد رمزية. يحتاج المعينون مباشرة للتدريس إلى التكوين سنة على الأقل، لأن اعتبار حصولهم على شواهد عليا لا يعني تمكنهم من أصول المهنة وأخلاقياتها.فما معنى أن مدرسا يخضع للتكوين الصارم وآخر يعين مباشرة ويعمل إلى جانبه.إننا في حاجة إلى اتخاذ قرارات استثنائية في هذا الأمر، لأن التكوين يتيح للمقبل على التعليم ما يلي:

تعميق المعارف وخاصة تلك التي سيحتاجها في تدريس تخصصه.

ب-التعرف على طرائق ومناهج التربية والتعليم.

ج-يتلقى تداريب عملية مفيدة خاصة على المستوى النفسي والتفاعلي.

د-يوضع خلال التكوين في صلب العملية التعليمية ومناخها وتربتها ومائها .

ه-يدرك عن قرب المشكلات الحقيقية التي سيواجهها أثناء تخرجه.

و- يتيح له الاقتراب من التلاميذ، وأساتذة التطبيق، والمشرفين عليه التعلم منهم، وأخذ أحسن الحلول لمشكلات البدايات، وأفضل الطرق والوسائل التعليمية.

ز-يتعرف على وضعيته القانونية والإدارية، وعلى حقوقه وواجباته.

ح-يتلقى معارف متنوعة في علوم التربية وعلم النفس التربوي.

ط-يتعرف على مناحي الضعف في شخصيته فيعمل على تجاوزها،ويستفيد من الجوانب القوية لديه.

ي-يكتسب ملكات وخبرات هامة في ما يتعلق بضبط القسم والتعامل مع الوثائق.

ك-يشعر بجسامة المهمة الملقاة على عاتقه.

ل-يتعرف على كيفية سير المؤسسات التعليمية ونظامها.

م-يطلع على الوسائل والإمكانيات المعلوماتية الحديثة، وحدود تطبيقها تربويا .

س-يدرك تمام الإدراك طبيعة العلاقات التي تجمع بينه وبين التلميذ، والإدارة، والمؤَطِّر التربوي، والزملاء، ومجالس المؤسسة، والشركاء الاجتماعيين.

ع-يتلقى تكوينا في إعداد الوثائق التربوية وتوظيفها.

ف-يتعلم منهجية البحث وإعداد المشاريع .

فكيف يمكن أن نضرب في كل هذه الفوائد وغيرها بجرة قلم ، أو قرار معين دون اعتبار أهمية التكوين؟ وكيف ندفع سفائننا إلى البحر وملاحوها لم يركبوا البحر قط، ولا يعرفون شيئا عن الرياح والموج، والأعماق والظلمات؟ وشأن هذا،كذلك، من يدفع بآليات إلى سائقين لم يتلقوا مبادئ السياقة وقانون السير، وإنه لهلاك محقق لتلك الآليات وإهلاك للمارة، ومغامرة وتغرير بالسائقين.بل إن الأمر أصعب من السفائن و الآليات، لأن أمر النفوس وتربية التلاميذ -رجال الغد - لهو أكبر خطرا من هذا. وكيفما كانت المبررات التقنية أو الاجتماعية أو السياسة المتحكمة في هذه القرارات، فلا معنى لأي إصلاح قبل إصلاح تكوين المدرسين، وأن لا يكون هذا لمدة أسبوع أ وشهر، فمعلوم أن الصناعة الحقيقية واكتساب الكفايات الضرورية يحتاج إلى وقت كاف، وإلى جهود كبيرة.وكما أن المقاولات والشركات تسأل طالب العمل عن التكوينات و التداريب التي تلقاها، وخبرته بميدان العمل الذي يطلبه، فأولى أن تنتهج الجهة المعنية بالتعليم هذا النهج الصارم، لأن التعليم هو عدة المستقبل، ورهان التقدم.

التفكير الإبداعي .. تحسبه بعيدا وهو قريب؟!!
التفكير ..متغير بلا نهاية وعين على المستقبل!

مولاي المصطفى البرجاوي *

إن معظم الإنجازات العلمية والتكنولوجية والعسكرية التي حققتها البشرية في القرن العشرين هي نتاجات أفكار المبدعين. ولكن العلم في الماضي كان يصمم لعالم مستقر، أما الآن فإن مجتمعنا يعيش في عالم سريع التغير والتلجلج ومضطرب(صنوف الأمراض، الحروب...)، تحيطه تحديات وطموحات محلية وعالمية لعل من أهمها الانفجار المعرفي والتطور التكنولوجي والانفتاح على العالم نتيجة سرعة الاتصالات والمواصلات حتى أصبح العالم (قرية صغيرة على حد تعبير ماكلوهان)... كل ذلك يحتاج منا السرعة في تنمية عقليات مفكرة قادرة على حل المشكلات وبطرق نقدية-إبداعية. وتعتبر تنمية هذه العقليات المفكرة مسؤولية كل مؤسسات الدولة وعلى رأسها المؤسسات التعليمية(قطب رحى لمجالات الحياة كلها)..وإن لم يتم تضافر الدولة مع هذه الأخيرة فإننا سنظل نراوح مكاننا!

مدخل مهم للولوج:

بادئ ذي بدء أسوق مجموعة من الشواهد والأمثلة والآراء الدافعة إلى تطوير الطاقة الكامنة نحو الإبداع والابتكار، في وقت كثر فيه الإرجاف والانتقاص من قيمة الإنسان وفعاليته.. وأصبحنا نبحث عن العالم والمبدع والأديب والمثقف ... مثلما نبحث عن الإبرة في كومة من القش!

* أستاذ مادة الاجتماعيات في التعليم الثانوي التأهيلي.
باحث في ديداكتيك العلوم الاجتماعية والتواصل-كلية علوم التربية-الرباط